

أشراط الساعة رواية ودراسة: الدرس الثاني ج 2

الكاتب: عبد العزيز الطريفي



قبض العلم

ذهاب الصالحين من علامات الساعة، ولا تقوم الساعة على صالح، ويلزم من هذا - وهذا من أشراط الساعة- قبض العلم، وقبض العلم يكون على التدرج، كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى: (يذهب الصالحون الأول فالأول)، أي: أنهم يذهبون شيئاً فشيئاً، والصلاح لا يكون إلا بوجود المصلح، والمصلح هو الآلة، وكذلك الشخص وهو العالم، ولا يوجد عالم إلا بعلم، فلما قبض العلم وقل العلماء دل على قبض العلم بقبض العلماء، فيكون حينئذٍ على نزول حتى ينتفي أهل العلم، فيبقى الجهل منتشرًا في الناس، وهذا بالنسبة للناس نسبي، إلا أنه في آخر الزمان الذي يعقبه قيام الساعة ينتفي في الخلق بالكلية.

ويظهر هذا كما جاء عند ابن ماجه - وهذا من أشراطها أيضًا - من حديث أبي مالك عن ربي بن حراش عن حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، إلا رجال يقولون: كنا أو أدركنا آباءنا يقولون: لا إله إلا الله، فنحن نقولها كما يقولون، فقال صلة لحذيفة بن اليمان: ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدررون ما صلاة ولا صدقة ولا صيام ولا نسك؟ فأعرض عنه مرة، فأعاد عليه، فلما كان في الثالثة التفت إليه حذيفة وقال: تنجيهم من النار لا أبا لك)، وهذا فيه إشارة إلى أن الإنسان يعذر بجهله، فإذا كان من أهل الجهالة في الأصول فإنه يعذر في الأصول، وتقوم عليه الحجة بحسب بلوغ الحكم عليه.

والله جل وعلا قد أخذ على نفسه أنه لا يعذب أحدًا حتى يبعث إليه رسولاً وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء:15]، وهذا ظاهر في قول الله

جل وعلا لرسوله عليه الصلاة والسلام: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ [التوبة: 6]، والسمع المراد به هنا هو بلوغ الحجة لا فهمها، فإن الإنسان قد لا يفهم الحجة، أو يكون من المعاندين، فالإحالة إلى شيء لا يمكن أن يدرك لا يمكن أن يتقرر في الشرع؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاتل المشركين لمجرد الإسماع على وجه يفهمونه لو أراد. وأما مسألة الإفهام فإنه لا يتعلق بها حكم شرعي، وذلك أن الإفهام متعلق بالقلب، والقلب مرده إلى الله؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح: (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)، فالنظر إلى القلوب هو من خصوصيات الله جل وعلا، والظواهر إلى العباد، فلما تبلغ الحجة الناس حينئذ يلزمون بالاتباع، وإن اعتذروا بعدم الفهم فلا يعتبر بذلك إذا كان قد بلغتهم الحجة على وجه يفهمونها لو أرادوا.

المقصود بقبض العلم

وقبض العلم قد جاء مفسراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الصحيح من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسألوا، فأفتوا بغير علم، فأضلوا وأضلوا)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا يقبض العلم قبض العلم أضيف إلى الله، وتصدير الجهال أضيف إلى الناس، (حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً)، ومعلوم أن الله جل وعلا هو المقدر لذلك كله، ولكن المراد في المسألة الأولى أن الله يقبض العلم لحكمة زائدة عن الشأن القدرى وهو انتشار الجهل في الناس، وأن يصدر الناس الجهال؛ ويؤخذ من هذا فائدة أن العالم يصدر نفسه بين الناس ولا يصدره الجهال، وعلماء السوء يصدرهم الناس، وهذا ظاهر في قوله عليه الصلاة والسلام: (اتخذ الناس رءوساً جهالاً)، أما العلماء فالله جل وعلا هو الذي يتخذهم.

التلازم بين ظهور الجهل وقبض العلم

ويلزم من ظهور الجهل قبض العلم، ومن قبض العلم ظهور الجهل، ومن انتفاء الجهل ظهور العلم، وكلها متلازمة تكون بين زمن إلى زمن، تظهر وتخبو حتى تزول، ويتأرجح ذلك بحسب وجود العلم والخيرية بين الناس، والخيرية المراد بها هنا هي وجود العلم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في البخاري: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، فالخيرية المراد بها هنا هي الفقه في الدين.

ويلزم من هذا أن الشر كما جاء في بعض الأدلة في آخر الزمان من وصف الناس بالشرار، أو وصف الزمن بالشر، المراد به انتفاء الفقه في الدين، وبه يعلم أن ما جاء في بعض النصوص من انتشار القراء وكثرتهم، وقلة الفقهاء أن وجود القراءة في الناس قراءة القرآن وضبطه وحفظه لا يلزم منها علمًا، وقد جاء في بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يكثرون قراءؤكم، ويقل فقهاؤكم)، وهذا فيه إشارة إلى أن القراءة وحدها من مواضع الضلال في الأمة إذا لم يكن ثمة فقه.

ظهور القلم وفشو الكتابة

ويظهر الجهل في معنى آخر وهو ظهور القلم وفشو الكتابة، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند الإمام أحمد في كتابه المسند، ورواه البخاري في كتابه الأدب، من حديث سيار أبي الحكم عن طارق بن شهاب عن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يظهر القلم في آخر الزمان).

وظهور القلم مع انتفاء العلم وظهور الجهل دليل على أن المراد بالقلم هو انتشار الكتابة والقراءة، والقراءة والكتابة لا تعني علمًا، وليس كل من حمل القلم وحمل الكتابة يكون عالمًا، وقد جاء في بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يلتمس الكاتب في البلد فلا يوجد إلا الواحد مع

وجود القلم)، وهذا فيه إشارة إلى معانٍ: المعنى الأول: إشارة إلى الظنية في انتشار العلم، وأن العلم يبتغى به التجارة، فلا يوجد شخص يتبرع بكتابة إلا الواحد والاثنان، وهذا إشارة إلى ما ظهر في الأعصار المتأخرة أن العلم وتعليم الكتابة والقراءة لا يكون إلا برواتب يدفعها الطلاب للمعلمين، وما يسمى الآن بالمدارس والبرامج التعليمية، وغير ذلك، فتعدى ذلك إلى ما هو أبعد من القلم والكتابة إلى سائر العلوم، وهذا لازم كما تقدم الإشارة إليه في ظهور الجهل في الناس، وليس بلازم من انتفاء العلم، فقد يوجد العلم ويفشو القلم، وقد لا يوجد العلم، ولا يوجد القلم أيضًا، وقد يوجد القلم مع وجود العلم، وقد يوجد القلم مع عدم وجود العلم، وهذه قد تتلازم، وقد لا تتلازم. وهذه الأنواع يذكرها كثير ممن يتكلم في أشراط الساعة على أنها أصناف منفردة، وهي داخلة من جهة الأصل تحت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يذهب الصالحون الأول فالأول)، ونحن أدرجنا هذه الجمل وهذه الأنواع في هذا الموضوع.

فتح بيت المقدس

ومن أشراط الساعة ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام في حديث عوف بن مالك مما جاء في الصحيح من حديث بسر عن أبي إدريس عن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أعدد ستًا بين يدي الساعة: موتي، وفتح بيت المقدس)، ففتح بيت المقدس من علامات الساعة، وقد جاء هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث أخر، وهذا من أصح ما جاء فيه.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (ثم فتح بيت المقدس) (ثم هنا تدل على الترتيب الزمني، وقد تدل على الترتيب الذكري في لغة العرب، ويستدلون لهذا بقول الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه قبله ثم قبل ذاك جده

وتأتي على ترتيب الزمن على الأشهر والأكثر كما هنا؛ ولهذا قال عليه الصلاة

والسلام: (أعددتنا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس).

فتح عمر لبيت المقدس

وفتح بيت المقدس فتحه عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى في عام ستة عشرة من الهجرة، وقد فتحه عليه رضوان الله تعالى وصلى به، وعمر فيه المسجد المعروف الآن بمسجد بيت المقدس.

والمراد بمسجد بيت المقدس ما هو أوسع من ذلك وهو الحائط تاماً، ويدخل فيه ما يسمى بمسجد قبة الصخرة، ويدخل فيه أيضاً مسجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى، فكله يسمى المسجد الأقصى وبيت المقدس. والمراد ببيت المقدس المراد بذلك المدينة، وإنما أشير إلى بيت المقدس لأنه هو المقصود من جهة التعظيم، فيكون كل ذلك تبعاً له، فلما فتح بيت المقدس كان حكامه وولاته حينئذٍ النصارى، ففتح عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى.

وتلاه بعد ذلك ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من علامة أخرى وهي وقوع الطاعون، ويأتي الإشارة إلى ذلك أيضاً بعد فتح بيت المقدس بسنتين.

عدد مرات فتح المقدس

وقد فتح بيت المقدس مرتين: المرة الأولى في خلافة عمر بن الخطاب، والمرة الثانية في خلافة صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس من الهجرة.

وسيفتح أيضاً في آخر الزمان كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ستقاتلون اليهود، ويقتل المسلمون اليهود، حتى يختبئ اليهودي خلف الشجر والحجر، فيقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي

خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)، وهذا فيه إشارة إلى أن المقتلة تكون في بلاد فلسطين، ويكون حينئذٍ الولاية لليهود وليست

لنصارى، كما كان في السابق، وهذا من علامات الساعة أنه يتولى اليهود

على بيت المقدس، ثم يعقب ذلك فتح، فيكون حينئذ ثمة علامتان من علامات الساعة في هذا الموضع: العلامة الأولى: أن يتولى أمر بيت المقدس اليهود، وقد حدث هذا، ويليه بعد ذلك الفتح على أيدي المسلمين، وهو الفتح الذي لا يعقبه ولاية على بيت المقدس إلا الشرار العام الذي يستوعب الأرض في آخر الزمان، وهو آتٍ لا محالة.

فضل قبة الصخرة ومسجد الصخرة

ومن الفوائد التي ينبغي أن يشار إليها هنا: أن ما يذكر في كتب التاريخ في مسألة قبة الصخرة ومسجد الصخرة، فإن هذا لم يثبت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء، وما جاء في ذلك إنما هو آثار، وقد بنى ذلك عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وذلك نكايه بابن الزبير، فإن ابن الزبير لما كان بمكة كان يخطب في الحرم، ويتكلم في عبد الملك بن مروان، فأراد أن يجعل مسجداً في هذا الموضع، فجعل مسجد قبة الصخرة، وأخذ يخطب فيه ويتكلم في ابن الزبير، فهو إنما بنى هذا المسجد لهدف سياسي، وليس لجمع المسلمين تحت ولاية عامة، حتى يصلوا فيه على التعبد كما هو ظاهر. ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل هذا الموضع شيء، بل ثبت عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى خلاف ذلك، كما رواه الإمام أحمد في كتابه المسند من حديث أبي سنان عن عبيد بن آدم و أبي مريم عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى أنه (لما فتح بيت المقدس، وكان بالجابية، قال لكعب الأحمبار: أين تراني أصلي؟ فقال: صل، واجعل أمامك الصخرة فيكون البيت كله أمامك. فقال: قد ضاهيت اليهود، أو ضارعت اليهود، فتقدم عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى فصلى أمام الصخرة). وفيه إشارة إلى أن هذه الصخرة معظمة عند اليهود، وهم يعظمونها، وبقي من بقاياها ما كان اعتقاداً عند كعب الأحمبار وكان يهودياً فأسلم، وبقي من بقايا علم اليهود لديه هذا المعنى، فجرى على لسانه فيما يظهر من غير قصد. وفيه إشارة من قول عمر عليه رضوان الله تعالى هنا: (ضاهيت اليهود، أو

شابهت اليهود) إلى أن هذا ليس من شريعة الإسلام، وطراً عليه جملة من المسائل، منها ما وضعه المتأخرون من جملة الكتابات والرسوم على الحجرة، ووضع رسم قدم، وأنها قدم النبي عليه الصلاة والسلام لما أسري به، وكل هذا من الخرافات، وقد جاء في ذلك خبر عند الطبراني وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عمرو الأسلمي النبي عليه الصلاة والسلام قال: (تمر العجوة والصخرة من الجنة)، وقال بعض الشراح: إن المراد بالصخرة هي القبة التي بنيت عليها قبة الصخرة، وهذا لا يصح، وقد صحح الخبر هذا الحافظ ابن حجر، وحمله على أنها قبة الصخرة ابن الأثير، وابن حجر، ولا يثبت عن أحد من العلماء من السالفين ممن سبقهم في هذا المعنى أحد، وقد يحمل على أن المراد بالصخرة هنا هي الحجر الأسود، وقد جاء في ذلك خبر أنه من الجنة، وقد أنزله الله جل وعلا إلى الأرض، والخبر قد أعله غير واحد من الحفاظ، وليس هذا موضع الكلام عليه، وتقدم الكلام عليه في غير هذا الموضع.

ظهور الشح

ومن علامات وأشراط الساعة: ما جاء في حديث عوف بن مالك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً)، وفي هذا إشارة إلى استفاضة المال وكثرته في أيدي الناس.

التلازم بين استفاضة المال وظهور الشح

ويلزم من استفاضة المال إيراد شرط من أشراط الساعة وهو ظهور الشح، وذلك أنه قد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البخاري و مسلم من حديث عبد الله بن عباس أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لو أعطي ابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملئ فم ابن آدم إلا التراب)، وهذا فيه إشارة إلى أن الشح متلازم مع ظهور المال. وظهور المال واستفاضته قد ظهر في بعض الأعصار كما جاء في خلافة عمر

بن عبد العزيز عليه رضوان الله، وقد جاء في بعض الأعصار، ومنها عصرنا، حيث استفاض وظهر الشح، وملك كثير من الناس أموالاً طائلة لم تعهد عند السابقين، وهذا ظاهر.

علاقة القناعة والسعادة بالمال

والإشارة إلى استفاضة المال وظهور الشح فيه فائدة ومعنى جليل القدر إلى أن القناعة والسعادة لا علاقة لهما بالمال، وذلك أن الشح إذا وجد في الإنسان وجدت التعاسة والشقاوة، وإذا وجدت القناعة ولا توجد مع المال وجدت حينئذ السعادة، والغالب في من يستفيض عنده المال أنه لا يكون من أهل السعادة، وإنما يكون من أهل الشح.

انشغال الناس بخاصة أنفسهم

ومن فروع كثرة المال واستفاضته وهو قرينة لظهور الشح انشغال الناس بخاصة أنفسهم، وعدم ما يسمى بحب العلاقة، وتكثير العلاقة، وانشغاله بالخصوصية، وهذا من آثار الشح، حتى يخشى الإنسان الاستدانة ويخشى الصدقة، أو الإحسان إلى الغير، ويخشى طراق الأبواب، وهذا يظهر مع غلبة الشح، ويلزم من هذا تسليم الخاصة، أي: ألا يسلم الإنسان للإنسان إلا للمعرفة، ويلزم من هذا قطيعة الأرحام، كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله عند البخاري في الأدب، وعند الإمام أحمد من حديث طارق بن شهاب عن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يفيض المال، وتقطع الأرحام، ويظهر تسليم الخاصة، وتكثر الفتن).

وتسليم الخاصة ألا يسلم الإنسان إلا لخاصته، ولا يسلم لقرابته ولا لأرحامه، ويخشى أن يكون من الناس من يتعرف عليه لأجل ماله ولغلبة الشح على الناس، وهذا ظاهر، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسند من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أشرط الساعة أن يمر الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة)، وهذا

ويلزم أيضًا من ظهور المال واستفاضة فشو التجارة، وهو لازم لظهور المال، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الإمام أحمد في المسند من حديث سيار أبي الحكم عن طارق عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (وتفشو التجارة)، وجاء في السنن والمسند: (حتى تعين المرأة زوجها على التجارة)، يعني: لكثرة وتشعب تجارته، حتى إن المرأة تنشغل مع زوجها بتسيير أمور تجارته، وهذا يدل على استفاضة المال، وكثرة التجارة عند الناس.

وفي هذا إشارة إلى أن استفاضة المال لعة ورود التجارة، وليس لغير هذه العلة، وقد ترد غير هذه العلة مما يظهر في آخر الزمان من السرقات، أو الإقطاعات، أو الاختلاسات، ونحو ذلك، ولكن الأظهر من ذلك هو أمر التجارة، كما جاء مقترنًا في حديث عبد الله وحديث أبي هريرة وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه أشراط متتابعة هي تابعة لمسألة استفاضة المال.

ومن ذلك أيضًا: أن تجعل الزكاة مغرمًا، وألا تخرج الزكاة، وهذا لازم للشح واستفاضة المال، ويأتي الكلام على مسألة الزكاة.

الكلمات المفتاحية:

#أشراط-الساعة

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تركية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.